سطوة الشاعر ولغة الشعر

الدكتور إبراهيم السامرائي

لا أدري كيف يكون لي أن ادرك قول الخليل بن أحمد لابن مناذر الشاعر : « إنما أنتم ، معشر الشعراء ، تبعٌ لي ، وأنا سُكّان السفينة ، إن قرّظتكم ورضيت قولكم نَفَقتمْ وإلا كَسَدتم »[1] . قد أستغربُ قولة الخليل هذه ، ولا أستبعدها ، ذلك أني أعرف زهد الخليل بنفسه ، وبعده عن الزهو والكبر .[2] ولكني أعود الى نفسي فأدرك أن هؤلاء الرجال الكبار قد تمرّ بهم ساعاتٌ يعرفون فيها لأنفسهم علوّ مكانتها فيكون منهم شيء من التنفّج لا يوصلهم الى الزهو المقيت . ولعل من هذا ما كان من خبر خلف الأحمر (وهو فوق كونه شاعراً يعد بحق في جملة علماء الشعر)[3] .

أقول هذا وأذكر ما كان من قول الخليل ، ثم أذكر ما كان من خبر خلف الاحمر إذ قال له رجل : « ما أبالي اذا سمعتُ شعراً استحسنتُه ما قلتَ أنتَ وأصحابُك فيه ، (وهو يريد بأصحابه علماء الشعر) . فقال له : اذا أخذتَ درهماً تستحسنُه ، وقال لكَ الصيرفيّ إنه ردي ، هل ينفعك استحسانُك إياه[4] ؟ » وكأن الخليل وخلفاً الأحمر على شهرتها في

---

(١) الأغاني ١٨ / ١٨٤ (ط . دار الكتب)

(٢) جاء في « نزهة الالباء » ص ٤٧ : قال النضر بن شميل « أكِلَت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه ، وهو في خُصّ لايُشعَر به » .

(٣) كالخليل بن أحمد والأصمعي . انظر المصون في الأدب لأبي أحمد العسكري ص ٦

(٤) العمدة ١ / ١١٧ ، الموازنة ١ / ٣٩٢ ثم قال الآمدي في معنى قول خلف شارحاً : « ... حتى اذا رمت تصريف دينار بدراهم ، او تصريف دراهم بدينار ، أو ابتياع ثوب ، أو شيء من الآلة ، لم تثق بفهمك ولا علمك حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اللغة كانا من علماء الشعر ، ولهما في نقده ومعرفته الخبرة التي يحتاج الشعراء أن يعرفوها . ومثل الخليل وخلف جماعة أخرى من أهل الأدب واللغة .

والجاحظ يذهب الى هذا الذي أشرت إليه حين قال : « وطلبتُ علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لايحسن إلاّ غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لايتقن إلا اعرابه ، فعطفتُ على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلاّ ما اتصل بالأخبار وتعلّق بالأيام والانساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات »[٥] .

والجاحظ يقر أن أدباء الكتاب ومنهم الحسن بن وهب[٦] ومحمد بن عبد الملك الزيات[٧] من أهل العلم بالشعر ونقده ، وإن كان للثاني شعر معروف اشتمل عليه ديوان صغير[٨] .

ولقد تبين فيما نقلناه من النصوص أن اللغويين والأدباء الاقدمين كانوا نقّاداً ، وهم أهل معرفة ودراية بصناعة الشعر ، وإن كانوا لا يقولون الشعر . واللغويّون النقاد والأدباء الكتاب قد اضطلعوا بمهمة النقد ، وكان لهم قول يعتد به إعلاء الشاعر وخفضه .

حاجتك ، ولِمَ لَما خفت الغبينة في مالك فأذعنت وسلمت وأقررتَ بقلة المعرفة ، لم تخش الغبينة والوكس في عقلك فتسلّم العلم بالشعر الى أهله ؟ فان الضرر في غبن العقل أعظم من الضرر في غبن المال » . الموازنة ١ : ٣٩٣ ـ ٣٩٤ [وكلمة خلف الأحمر أوردها ابن سلام في طبقات فحول الشعراء ١ : ٧]

(٥) الكشف عن مساوئ المتنبي ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٦) الحسن بن وهب من الكتّاب كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، ولي ديوان الرسائل . انظر وفيات الاعيان ، / ٤١٥ ـ ٤١٦

(٧) اديب شاعر كان وزيراً للمعتصم والواثق ، سجنه المتوكل ، وتوفي في سنة ٢٣٣ هـ . انظر وفيات الأعيان ٥ / ٩٤ ـ ١٠٣

(٨) نشر ديوانه جميل سعيد في بغداد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أني أخلص من هـذا التمهيـد الى أن الشعراء أنفسهم كانـوا نقـاداً يتقنون صنعتهم ، ويدركون أن غيرهم من أهل المعرفة لايبلغون مبلغهم في معرفة الشعر . قال الصاحب بن عباد : وحـدثني محمـد بن يوسف الحمّـادي قال : حضرت مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحتري فقال : يا أبا عبـادة ، أمسلم بن الوليـد أشعر أم أبو نواس ؟ فقـال بل أبو نواس ، لأنـه يتصرف في كل طريق ، ويتنـوّع في كل مـذهب ، إن شـاء جدّ ، وإن شـاء هزل ، ومسلم يلتزم طريقـاً واحـداً لايتعـدّاه ، ويتحقق مذهباً لايتخطّاه ، فقال عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لايوافقـك على هذا ، فقال : أيها الأمير ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، ممّن يحفظ الشعر ولا يقوله ، وإنما يعرف الشعر من دُفع الى مضايقـه . فقـال : وَرِيتْ بـك زنادي ياأبـا عبـادة ، لقـد حكمتَ في عمّيـكَ حكم أبي نواس في عمّيـه جرير والفرزدق ، فـإنـه سئـل عنهما ففضّـل جريراً ، فقيـل لـه : إن أبـا عبيـدة لايوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم أبي عبيدة ، وإنما يعرفـه من دفع الى مضايق الشعر » .[٩]

وقد ذهب الشعراء الى هـذا ، وكأنهم أبوا على أهل النقـد من اللغويين والأدباء أن يكون لهم رأي صائب فيهم ، وفي هذا يحسن بنـا أن نعرض لما وقع للفرزدق مع عبـد الله بن أبي اسحـاق الحضرمي ، قـال يونس : « .... وكان (أي ابن أبي اسحـاق) يردّ كثيراً على الفرزدق ، ويتكلم في شعره ، فقال فيه الفرزدق :

فلـو كانَ عبـدُ الله مـولىً هجـوتـهُ ولكن عبـدَ الله مـولى مَـوالـيـا

(٩) الكشف عن مساوئ المتنبي ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقال ابن أبي اسحاق : ولقد لحنْتَ أيضاً في قولك : « مولى مواليا » ، وكان ينبغي أن تقول : مولى موالٍ ، والحليف عند العرب مولى ، ومنه قول الأخطل ....

ومما رواه أبو عمرو بن العلاء : أن ابن أبي اسحاق سمع الفرزدق ينشد :

وعضُّ زمانٍ بابنَ مروانَ لم يدَعْ من المال إلا مُسحَتاً أو مُجَلَّفُ

فقال له ابن أبي اسحاق : على أي شيء ترفع « أو مجلَّف » ، فقال : على ما يسوؤك وينوؤك .... » .[١٠]

أقول : ومن هنا نفهم ما كان الفرزدق يشعر به من سطوة الشاعر ، ذلك الشعور الذي جعله يقدم على شيء من رداءة التأليف ، وهو غير مبال بما يقوله اللغويون وما عابوه عليه . ومن ذلك ما ورد في قصيدة مدح بها ابراهيم بن هشام بن اسماعيل خال الخليفة هشام بن عبد الملك :

وما مثلهُ في الناس إلاّ مملّكا أبو أمّه حيٌّ أبوه يُقاربُهْ[١١]

وقد عدَّ النقاد هذا البيت من فاسد التأليف ، وصار من شواهدهم في هذا الباب . ومثل هذا بيته الذي ورد في قصيدة مدح بها الوليد بن عبد الملك :

الى مَلكٍ ما أمُّه من مُحاربٍ أبوه ولا كانت كليبٌ تُصاهرُهْ[١٢]

---

(١٠) نزهة الالباء ص ٢٧ ـ ٢٨

(١١) سقط البيت من الديوان ، وأضافه الصاوي الناشر ص ١٠٨ نقلاً عن الأغاني وغيره .

(١٢) شواهد العيني ١ / ٥٥٥ ، وفي الديوان ص ٣١٢ ، والأغاني (بولاق) ١٩ / ١٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على أن هذه المداخلة في الكلام كانت مما يُعجب النحويين كقوله :

تعالَ فان عاهدتَني لا تخونُني نكنْ مثل من يا ذئبُ يصطحبانِ

وقوله :

إنا وإياكَ إن بلّغنَ أرحلَنا كمن بواديه بعد المحل ممطورِ[١٣]

واذا كان عبد الله بن أبي اسحاق قد ناله شيء من هجو الفرزدق له لأنه لم يسكت عمّا وقع للفرزدق من خطأ ، فان الفرزدق على سطوته التي عرف بها ، وهي سطوة الشعراء الكبار ، قد أذعن لِما وَجّه إليه من نقد . لقد « أقوى » الفرزدق في بيت له جاء بقافية مضمومة فقال فيها :

على عمائمنا تُلقى وأرحلنا على زواحفَ تُزْجَى مخُّها رِيرُ[١٤]

لقد ضمَّ الفرزدق « رير » فوقع في الإقواء ، ولكن ابن أبي اسحاق رواها « رير » بالكسر تصحيحاً للفرزدق ، ولم يكترث لما كان من الفرزدق معه . وكأن الفرزدق أقرَّ بما صنع ابن أبي اسحاق فعاد للبيت وغيَّر من قافيته لتسلمَ من الإقواء فقال : على زواحفَ نزجيها محاسيرِ[١٥]

على أن أبا عمرو بن العلاء كان يرى في شعر الفرزدق ثروة عظيمة من العربية . ولا يعني شيئاً كبيراً أن يكون الفرزدق قد عرض له الإقواء ، فقد عرض لشعراء العصر الجاهلي شيء منه ، فلم يسلم منه شعر النابغة في قوله :

---

(١٣) الأغاني ١٩ / ١٥ ، [ديوان الفرزدق : ٨٧٠ ، ٢٦٣]

(١٤) انظر : طبقات الشعراء ص ٧ ، والموشح ص ١٠٠ ، والشعر والشعراء ص ٢٥ وفيها ان ابن أبي اسحاق كان قد عاب على الفرزدق إقواءه ، وفي رواية أخرى ان الذي عابه على ذلك هو عنبسة بن معدان الفيل . [طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ : ١٧] .

(١٥) كذا في الديوان (ط . الصاوي) ص ٢٦٣ ، [طبقات فحول الشعراء ١ : ١٧]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقْش في أنيابها السُّمُّ ناقعُ

وكأنَّ « الضرورة » ألجأت النابغة الى قوله « ناقع » بدلاً من نصبه على الحال[١٦][1] .

أقول : وليس شيئاً أن يعيب عبد الله بن أبي اسحاق ما كان من الفرزدق من مخالفة القياس وفساد التأليف ، ذلك أن خصوم ابن أبي اسحاق أخذوا عليه ضعف عربيته على تشدّده في تحري الصواب ونقده للشعراء .[١٧]

واذا كان الفرزدقَ قد بلغ هذه المكانة في شعره ، وأنه وقف من ابن أبي اسحاق موقفه الذي أشرنا إليه ، فقد كان في الوقت نفسه يحسب لأقوال النحويين واللغويين ما تستحق من الحساب . ومن هذا ما كان منه في قصيدته التي مدح فيها أخواله بني ضبة ، وفخر بفعله حصين بن أصرم قاتل ابن الجون الكندي ، لأنه أبى أن يقرب اللحم ويتناول الخمر حتى يقتله ، فقال فيها :

غداةَ أحلَّت لابن أصرَمَ طعنةٌ حصينٍ عبيطاتُ السدائفِ والخمرُ

---

(١٦) الكتاب لسيبويه ٢ / ٢٢٣ ، أقول : ومن الاقواء في شعر النابغة قوله في الدالية « وبذاك خبَّرنا الغرابُ الاسودُ » ، وفي شعر امرئ القيس وطرفة وعنترة شواهد في الإقواء .

[(1) جاء في كتاب سيبويه (ط . بولاق) ١ : ٢٦١ : « .... وذلك قولك : فيها عبد الله قائماً ، وعبد الله فيها قائماً .... فصار قولك : فيها ، كقولك : استقرّ عبد الله ، ثم أردت أن تخبر على أية حال استقرّ فقلت : قائما . فقائم حالٌ مستقرٌّ فيها . وان شئت ألغيت فيها ، فقلت : فيها عبد الله قائمٌ . قال النابغة :

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

وقال الهذلي :

لادرَّ دري إن اطعمتُ نازلكم قرف الحتيّ وعندي البُرُّ مكنوزُ

كأنك قلت : البُرُّ مكنوزٌ عندي ، وعبد الله قائم فيها .... / المجلة] .

(١٧) انظر ارشاد الاريب ٢ / ٣٧١ ، [معجم الادباء (ط مصر) ٧ : ٨٦ ترجمة بكر بن حبيب السهمي] وانظر : غاية النهاية ١ / ٤١٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بنصب «طعنة» ورفع «عبيطات» وهذا مما لم يرضه الكسائي، فغيّر الفرزدق روايته هذه فقال :

غداةَ أحلّت لابن أصرَمَ طعنةٌ حصينٍ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ[18][2]

أقول : الشعر صنعة وشاعرية ، وكأني أقدّم الصنعة لأنها ثقافة وعلم ، ثم تأتي الشاعرية معتمدةً على محصول الشاعر من صنعته . واذا كان الشعر صنعة فهي جهدٌ ومعاناة ، قال الراجز القديم :

الشعر صعبٌ وطويل سُلَّمُهْ
اذا ارتقى فيه الذي لا يعلَمُهْ
زلّتْ به الى الحضيض قَدَمُه
يريد أن يُعربَه فيعجمُهْ

وقد « سُئل رؤبة عن الفحل من الشعراء فقال : هو الراوية ، يريد أنه اذا روى استفحل . وهو القائل :

لقد خشيتُ أن يكونَ ساحرا راويةً مَرّاً ومَرّا شاعرا

استعظم حاله حتى قرنها بالسحر »[19] .

---

(١٨) انظر الكامل للمبرد (ط . رايت) ص ٢٠٩ وقد وردت هذه الرواية في الديوان ص ٣١٧

[(2) رواية المبرد في الكامل ان الفرزدق أنشد يونس بن حبيب بيته بنصب (طعنة) ورفع (عبيطاتُ ... والخمرُ) على القلب ، لأن الكلام اذا لم يدخله لبسٌ جاز القلب للاختصار .

ولكن الكسائي النحوي حين أنشد يونسَ بن حبيب البيتَ رفع (طعنة) ونصب (عبيطات ...) ثم رفع (الخمر) على معنى : وحلّت له الخمرُ . فقال له يونس : ماأحسن ماقلت .

ثم قال المبرد : والذي ذهب اليه الكسائي أحسنُ في مَحْض العربية . وان كان انشاد الفرزدق جيداً / المجلة] .

(١٩) كفاية الطالب ص ٤٤ (لابن الأثير ، من منشورات جامعة الموصل ، سنة ١٩٨٢) ، وفي العمدة ١ / ١١٤ : « وسئل رؤبة عن الفحولة ، قال : هم الرواة » . =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومما رُوي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سأل « غالباً » أبا الفرزدق عن الغلام الذي يصحبه ، فقال غالب : ابني ، قال : ماسْمه ؟ قال : همّام ، وقد روّيته الشعر ياأمير المؤمنين وكلام العرب ، ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً ، فقال : أقرئه القرآن ، فهو خير له . فكان الفرزدق يروي هذا الحديث ويقول : مازالت كلمته في نفسي ، حتى قيّد نفسه بقيد وآلى ألاّ يفكّه حتى يحفظ القرآن ، فما فكّه حتى حفظه[٢٠] . وذكر ابن سلاّم : أن راوية الفرزدق حدّثه قائلاً : « إنه لم ير رجلاً كان أروى لأحاديث امرئ القيس وأشعاره من الفرزدق »[٢١] . وقيل : ان الفرزدق سمع رجلاً يقرأ : « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله ، والله غفور رحيم » ، فقال : لاينبغي ان يكون هذا هكذا ، فقيل له إنما هو « عزيز حكيم » ، قال : هكذا ينبغي ان يكون[٢٢] » .

وقد يدلّنا على سعة علم الفرزدق ماحُكيَ من أن رجلاً سأل الحسن البصري فقال : « ياأبا سعيد ، الرجل يقول : لا والله ، وبلى والله ، لايعقد اليمين ؟ فقال الفرزدق : لاشيء ، فقال الحسن : وما علمك بذلك ؟ قال : أو ماسمعتَ ماقلت ؟ قال الحسن : وماقلت ؟ قال :

= وكانوا : « يسمون الشاعر الذي يجمع الى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره « خِنذيذاً » أي تاماً ، ويجعلون الشاعر الراوية أول الشعراء قدراً » . المصدر السابق .

(٢٠) الاغاني (ط . دار الكتب) ٢١ / ٢٨٣ ، ٣٩٥ ، والخزانة (تحقيق هارون) ١ / ٢٢٢

(٢١) الشعر والشعراء ٢ / ٤٩٠ ، والبيان والتبيين ١ / ٤٦ . [الشعر والشعراء ١ / ٧٠ ترجمة امرئ القيس ، ولم يرد ماذكره ابن سلام في البيان والتبيين . وانما ورد فيه (١ : ٣٢١) : « ... فاذا كان الفرزدق وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم يقول فيه (في أبي عمرو بن العلاء) مثل هذا القول .... وقال يونس : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس / المجلة]

(٢٢) الأغاني ٢١ / ٣٦٢

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قلت :

ولستَ بمأخوذٍ بشيءٍ تقولُه اذا لم تعمّد عاقدات العزائمِ

قال : فسكت الحسن »[٢٣] .

وقد كان لثقافة الشاعر إشارات كثيرة في أشعار الأقدمين ، فهذا معقّر بن حمار البارقي يقول :

الشعرُ لبُّ المرء يعرضهُ والقولُ مثل مواقع النُّبْل

منها المقصّر عن رميّتِه ونوافذ يذهبنَ بالخَصْلِ[٢٤]

وها هو ذا الأخطل يقول :

ان الكلامَ من الفواد وإنّما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا[٢٥]

ومما نُسبَ الى طرفة والى حسّان بن ثابت :

وان أشعرَ بيت أنتَ قائلُه بيتٌ يقال اذا أنشدتَه صَدَقا

وإنما الشعرلبُّ المرء يعرضهُ على المجالس إنْ كَيْساً وإن حمقا[٢٦]

قلت : ان الشعر صنعة فنية ، وشاعرية ، وقد تكلّمت عن الصنعة وأدواتها ، فما الشاعرية ؟

زعم الشعراء أنّ الشعر يأتيهم وحياً وإلهاماً ، ومن هنا أشاروا الى شياطينهم ، وان لكل شاعر شيطاناً يُلهمه ، أو رئياً من الجنّ يوحي إليه ، فيقول الشعر . أشارَ الأعشى الى شَيطانه « مِسحَل » فقال :

وما كنتُ ذا خوفٍ، ولكن حَسِبتُني اذا مِسحَلٌ يُسدي ليَ القولَ أفرَقُ

---

(٢٣) نور القبس للمرزباني ص ٤٠ ـ ٤١ [طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ : ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ، والبيت في ديوان الفرزدق ٢ : ٨٥١]

(٢٤) العمدة ١ / ٩٧ ، وانظر الخزانة ٢ / ٤١٠

(٢٥) الشعر والشعراء ١ / ٢٤١

(٢٦) الاغاني ٩ / ١٦٠ ، والشعراء ١ / ٢٣٥ [العمدة لابن رشيق ١ : ٩٥]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شريكان فيما بيننـــا من هَـوادةٍ صَفيّـــان إنسيٌّ وجنٌّ مـوفَّـقُ
يقـول فـلا أعيـا بقـولٍ يقـولُـه كفـــانيَ لاعِيٌّ ولا هـو أخرقُ[٢٧]

وقال أيضاً :

دعـوت خليلي مِسْحَلاً ودَعَـوا لَـه جِهِنّـام بُعْـداً للغـويِّ المـذمَّمِ[٢٨]

وقال :

حبـاني أخي الجنّيُّ نفسي فـداؤه بـأفيحَ جيـاشِ العشيّـات مرجمِ[٢٩]

ويذهب عُوَيف القوافي الى أبعدَ من هذا فيـذكر أن رِدْفـه ، أي تـابعـه من الجنّ قد دعا القوافي فأجبْنَه وارعوَيْنَ لصوته فيقول :

دعـاهُنّ ردْفي فـارعَـوَيْنَ لصـوتِـه كما رُعتَ بالجوتِ الظِّماءَ الصَواديا[٣٠]

ويعزو الفرزدق حُسن شعره الى « شيطان أشعر خلق الله » فيقول :

كأنهـا الـذهبُ العِقْيـان حبَّرَهـا لسـانُ أشعرِ خلْـقِ الله شيطـانـا[٣١]

وأنا ابو النجم الراجز فيرى ان شيطانَـه غيرَ شيـاطين الشعراء فهو يفوقهم ، فيقـول في هـذا إن شيطـانـه أقـوى من شيـاطين الشعراء لأنـه « ذكر » ، وشياطين غيره إناث :

إني وكلُّ شـــــاعرٍ من البَشَرْ شيطـــانُـــه أنثى وشيطـــاني ذكَرْ
فمـــا رآني شـــاعرٌ إلا استَتَرْ فعـلَ نجـوم الليـل عـايَنَّ القَمَرْ[٣٢]

(٢٧) جمهرة أشعار العرب ص ٦٢

(٢٨) رسائل أبي العلاء ص ٦٦ ، [ديوان الأعشى : ١٢٥]

(٢٩) الحيوان ٦ / ٢٢٦ [ديوان الأعشى : ١٢٥]

(٣٠) الخزانة ٦ / ٣٨٢ ، ويقال للبعير : « جوت ، جوت » ، اذا دعوته الى الماء .

(٣١) الحيوان ٦ / ٢٢٧

(٣٢) الحماسة البصرية ١ / ٨٠ ، أقول وفي « رسائل المعرّي » و « ديوانـه اللزوميـات » و « رسـالـة الغفران » مـايشعر أن المعري ينكر هـذا ويستبعـد ان يكـون للشـاعر رئيّ من الجن يصـدر عنـه . انظر : رسـائل ابي العلاء ص ٦٥ ـ ٦٦ ، وشروح سقـط الزنـد ٢ / ٩١٧ ، ولـزوم مـالا يلزم ٢ / ٥٣٩ ، ورسـالـة الغفران ص ٥٥٢ . وقـد أشـار ابـو العـلاء الى أن الجنيّ ، واسمـه الخيتعور ، من قبيلة من الجن دعاها بني الشيصبان ، ولعل هذا شيء ابتدعه المعري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهو يفاضل بين شيطانه ، وشياطين الشعراء الآخرين . والى شيء مثل هذا ذهب أعشى سُلَيْم حين وصف شيطان الفرزدق بأنه لم يكن قدوة بين شياطين الشعراء فقال :

وما كان جنّيُ الفرزدقِ قدوةً وما كان فيهم مثل فحلِ المُخَبَّل
ومافي الخوافي مثل عمروٍ وشيخِه ولا بعدَ عمروٍ شاعر مثل مِسحَلِ[٣٣]

وقال صبيّ بدويّ :

إنّي وإنْ كنتُ صغيراً سِنّي وكان في العين نبُـــــوٌّ عنّي
فـــإنّ شيطـــاني أميرُ الجنّ يـــــذهب بي في الشعر كلّ فنّ
حتى يُـــزيـــلَ عنّيَ التظنّي[٣٤]

أقول : كأن توهّم الأقدمين لشيطان الشاعر ، أو جنّيّه ضرب من وهم يوشك أن يكون اعتقاداً أسطورياً ، ذلك أن ذهاب هذا الصبي البدوي الى أن شيطانه « أمير الجنّ » يشير الى تجسيم هذا التصور في ذهنه ، ان هذا التجسيم يوحي أن صاحبه طراز خاص من البشر بحيث اصطفاه شيطانه أو جنّيّه ليحتل هذه المكانة . ومن هنا كان الشاعر الكبير هو « الفَذّ » وهو « الخِنْذيذ » ، وان شعره « رُقْيةُ شيطان » لأنه مؤثّر تأثير السحر . ومن أجل هذا كان عجب جرير من أن « رُقَى شيطانه لم تستفزّ » عمر بن عبد العزيز :

رأيتُ رُقَى الشيطـــانِ لاتستفِـزُّه وقد كان شيطاني من الجنّ راقيا[٣٥]

ويرى جرير أنه أشعر الشعراء ، وان شيطانه لذلك قد « اكتَهَلَ » وأنه « إبليس الأباليس » ، فيقول :

---

(٣٣) الحيوان ٦ / ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٣٤) الخصائص ١ / ٢١٧ ووردت الأشطار مع اختلاف في الوحشيات ص ١١٩ ، وانظر رسائل ابي العلاء ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٣٥) ديوان جرير ص ١٠٤٣ (ط . دار المعارف بمصر) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إني لَيلقي عليَّ الشعر مكتهلٌ من الشياطين إبليسُ الأباليسِ[٣٦]

وذهب احد الشعراء الى أنه اذا عرض له الشعر أطلعَتْه الجنُّ على أشعارها فيصطفي منها مايُريد بعد أن يوردَها عليه شيطانه ، فيقول :

وكنتُ اذا ما أردتُ القريضَ تخيَّرني الجنُّ أشعارَها
أروضُ صِعابَ قوافي القريـ ـضِ حتى تَذلَّ فأختارَها
قوافٍ يوردُها صاحبي اليَّ وأكفيهِ إصدارَها[٣٧]

لقد رأينا الشاعر يعزو شاعريته الى شيطانه أو جنيّه ، وان الجنّ تعرض عليه الشعر فيختار منه أجوده ، ولكنه لم ينس أنه صانعٌ ماهر ، وان قوافيه تُدرك الخفي من المعاني . لقد ذهب طرفة بن العبد الى أن شعره أدرك الخفي من المعاني فهو يدخل في مداخل لاتصل اليها مغارز الإبَر فيقول :

رأيت القوافي يتَّلجْنَ مَوالجاً تَضايقُ عنها ان تَولَّجها الإبَرُ[٣٨]

وهذه القدرة التي تصل إليها القوافي دليل صنعة خاصة لايصل إليها إلا الشاعر الحِنذيذ ، وصنعته هذه هي عمل صعب لايُدركه إلا الشاعر الشاعر . ومن هنا حقّ للفرزدق ان يصرِّح أنّ مايعانيه من ألم في قلع ضرسٍ له أهونُ عليه من وضع القافية في موضعها[3] .

---

(٣٦) ربيع الأبرار ١ / ٣٨٤ ، ولم أجد البيت في طبعتي الديوان .

(٣٧) الاشباه والنظائر للخالديين ٢ / ١٤٩ .

(٣٨) حلية المحاضرة ١ / ٢٥٧ .

[(3) جاء في البيان والتبيين للجاحظ (١ : ١٣٠ ، ٢٠٩) : « وقال الفرزدق : أنا عند الناس أشعرُ العرب ، ولربّما كان نزع ضرس أيسر علي من أن أقول بيت شعر » . وجاء هذا القول في الشعر والشعراء ١ : ٢٦ ، والأغاني ٢١ : ٣٦٥ ، والعقد لابن عبد ربه ٥ : ٣٢٧ ، وأنساب الاشراف ١١ : ٦١ ، ومحاضرات الأدباء ١ : ٥٢ ، والكشكول ٢ : ٤١٥ / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واذا كان للشاعر هذا الإدراك من الصنعة ، فذلك موضع فخره .

ومن هنا دُعيَت قصائد زهير بن أبي سلمى بـ « الحوليّات » ، ذلك أنها تقتضيه جُهْدَ عامٍ ينظمها ويبقى ملازماً لها ، مجتهداً في إتقان صنعته ، فحق له أن يقول :

فأبلِغْ ، ان عرضتَ لهم ، رسولاً بني الصيداء إنْ نَفَع الجوارُ
بأنّ الشعر ليس له مَرَدٌّ اذا وَرَد المياهَ به التِجارُ[٣٩]

ويبقى شعره متعة الركبان يُنشدونه في ظعنهم فيقول :

أولى لهم ثم أولى ، أن تُصيبَهُمُ مِنّي بواقرُ لاتُبقي ولا تَذَرُ
وأن يعلّل ركبانُ المطيّ بهم بكلّ قافيةٍ شنعاءَ تشتهرُ[٤٠]

وقال في مثل هذا أيضاً :

إني سترحَلُ بالمطيّ قصائدي حتى تحُلَّ على بني ورقاءِ
يتوارثون بقاءَها مدحاً لهم رهنٌ لآخرهم بطولِ بقاءِ[٤١]

ولقد كثر فخرهم بالشعر وسيرورته حتى صار نهجاً يسلكه الشعراء على تفاوت أقدارهم ، قال المسيَّب بن علس :

فلأهدينَّ مع الرياح قصيدةً منّي مُغَلْغَلةً الى القَعْقاعِ
ترِدُ المياهَ فلا تزالُ غريبةً في القومِ بين تمثُّلٍ وسَماعِ[٤٢]

وقصيدته هذه تقوم مقام رسالة « مغلغلة » يبعث بها الى القعقاع ، وهي بقدر ماتكون أداة تبليغ تكون في الوقت نفسه مادة فنيّة تُحرز لها البقاء والخلود ، يتمثل بها القوم منشدين . ومثل هذا قول الأعشى :

وإن عِتاق العِيسِ سوف يزورُكم ثناءً على أعجازهنَّ مُعَلَّقُ

(٣٩) شعر زهير بن ابي سلمي ص ٩٢ .
(٤٠) المصدر السابق ص ٩٥ .
(٤١) حلية المحاضرة ١ / ٤٢٣ .
(٤٢) الاغاني ١٦ / ١٦٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بـه تَنْفضُ الأحلاسُ في كلّ منزلٍ وتُعْقَدُ أنساعُ المطيّ وتُطلَقُ[٤٣]

وتقرأ قولَ الشاعر تميم بن أبيّ بن مُقبل فتلمح قدرةَ الشعر في شاعرية صاحبه وسطوته ، قال الشاعر :

اذا متُّ عن ذكر القوافي فلن تَرَى لها تالياً مثلي أطبَّ وأشعرا
وأكثرَ بيتاً مارداً ضُرِبَتْ له خُزونُ جبال الشعر حتى تيَسَّرا
أغرَّ غريباً يمسحُ الناسُ وجهَه كما تمسَحُ الأيدي الأغرَّ المُشهَّرا[٤٤]

والشاعر يُطري شعره فيذهب الى أن الناس يُنشدونه معجَبين متمثّلين كما يُعجَبون بالجواد « الأغرّ المشهّر » فيروحون يمسَحون بأيديهم غُرّته .

وكأنّ الفخرَ بالشعر وبناء القوافي من موادّ الفخر المفضّلة ، لايختلف درجةً عن الفخر بالنَسَب وبالصفات الحميدة ، فأنت تجد جمهرة من شعرائهم قد أشاروا الى هذا في بناء قصائدهم . ومن هؤلاء قول جرير :

وإني لقوّالٌ لكلّ غريبةٍ وَرودٍ اذا الساري بليلٍ تَرَنَّما
خَروجٍ بأفواهِ الرواةِ كأنها قَرَى هُندوانيٌّ اذا هُزّ صمَّما[٤٥]

وقال أيضاً :

وإني لَهاجيهم بكلّ غريبةٍ شَرودٍ اذا الساري بليل تَرَنَّما
غرائبَ ألآفاً اذا حانَ وِرْدها أخذْنَ طريقاً للقصائد مُعْلَما[٤٦]

وقال ذو الرمة :

---

(٤٣) ديوان الأعشى (شرح د . محمد محمد حسين) ص ٢٢٣ .

(٤٤) الأغاني ١ / ٣٣٨ و ١ / ٣٥٥ وطبقات فحول الشعراء ٢ / ٦٧٥ [لم ترد الابيات الثلاثة في طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، ولكنها وردت في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ : ٤٢٧ ، ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني : ٥١٢ ، وحلية المحاضرة للحاتمي ١ : ٤٢٥ ، وديوان تميم بن أبي بن مقبل : ١٣٦] .

(٤٥) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٦٢ .

(٤٦) نقائض جرير والفرزدق ١ / ٦٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فـأصبحتُ أرميكم بكلّ غريبـةٍ تجدُّ الليالي عارَها وتَزيدُها
قوافٍ كشامِ الوجهِ باقٍ حَبَارُها اذا أرسِلتْ لم يبقَ يوماً شرودُها
توافَى بها الركبانُ في كلّ موسمٍ ويحلو بأفواهِ الرواةِ نشيدُها(٤٧)

وللفرزدق حديث في القصائد يتناشدها الركبان كسائر الشعراء ممّن استشهدنا بشعرهم ، وغيرهم كثير ، قال :

واذا القصائدُ أوضَعَتْ ركبانُها بالغَورِ وهي مُمرَّةُ التحبيرِ
علِمتْ هَوازنُ أنّه قد غَرَّها شعراؤها وغواتُها بغرورِ
نَبَحَت كلابُ الجنِّ لمّا أجحَرتْ فَرَقاً لدى مُتَبهْنِسٍ مَضْبورِ
لما رَأيْنَ صلابةً في رأسِهِ أقعَيْنَ ثم صأيْنَ بعدَ هريرِ(٤٨)

فالركبان تسرع وهي تنشد بقصائده فينجحر الشعراء ويُقعون كالكلاب .

ودأبُ الشعراء هذا في الفخر بشعرهم قديم ، فحُمَيد بن ثور ، من شعراء العصر الاسلامي المتقدّم يشير الى أن قصائده كانت موضعَ سَمر الرواة في تشهيرها بخصومه :

قصائدُ يَستحلي الرواةُ نشيدَها ويلهو بها من لاعبِ الحيِّ سامرُ
يعَضُّ عليها الشيخ إبهامَ كفِّه ويَخْزَى بها أحياؤكم والمقابرُ(٤٩)

وهم يفخرون بما كان لهم من عناية في تخيّر قوافيهم وتهذيبها وبنائها كما في قول ذي الرمة :

وشعرٍ قد أرِقتُ له غريبٍ أجنّبُه المساندَ والمحالا
فبتُّ أقيمه وأقدُّ منه قوافيَ لاأعدُّ لها مثالا(٥٠)

(٤٧) ديوان ذي الرمة (تحقيق عبد القدوس أبو صالح) ١٢٣٩ ـ ١٢٤٠ .

(٤٨) نقائض جرير والفرزدق ٢ / ٩١٤ .

(٤٩) أمالي ابن الشجري ١ / ٣٢٤ ، وانظر الحماسة البصرية ٢ / ٢٧٤ [وديوان حميد بن ثور الهلالي : ٨٩] .

(٥٠) ديوان ذي الرمة (تحقيق عبد القدوس أبو صالح) ٣ / ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقال عديّ بن الرقاع العاملي :

وقصيدة قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوّمَ ميلَها وسِنادَها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيمَ ثِقافُه مُنآدَها
وأبيتُ حتى ما أسائل عالماً عن حرف واحدةٍ لكي ازدادها[٥١]

والى هذا المعنى ذهب كثير من الشعراء مفتخرين بشعرهم ، وما كان لهم من العناية في بنائه ونسجه . وكأن هذه الصنعة التي كلفت الشعراء عناية فائقة لاتفسد عليهم قولهم في « شياطين الشعراء ، وان هذه كانت تلهمهم ماكانوا قد أبدعوا فيه . وهذا يعني أن « الإلهام » ، أيّاً كان لنا أن نوجّهه ، غيرُ الصنعة والعناية بها ، وكلاهما مما يُهيِّىء للشاعر مادته وشاعريته التي حبته سطوته وقوته . أقول : كأن لغة الشاعر وتصرفه بها وما يكون له من شاعرية موهوبة قد أوحى كلٌّه الى الشاعر أنه صانع الابداع في حيز اللغة التي يملكها ويتصرف بها .

وكأني أذهب من هنا الى شيء غير الذي ذهب إليه علماء الشعر مما أسموه « ضرورة » شعرية فعقدوا له الرسائل وصنفوا فيه الكتب . وإني لأستبعد هذا المصطلح الذي ينصرف الى مساوىء الشاعر ولا يبعد عما ندعوه فساد التأليف . ومن هنا أعطي مصطلحاً يعني « الاضطرار » ، والاضطرار يومىء الى الضُر والضرر . ومن هنا ايضاً قيل في صاحب « الضرورة » : إنه ارتكبها ، كأنها ذنب يقترفه صاحبه ، ألا ترى أنهم قالوا : ضرورة حسنة أو مقبولة ، وأخرى قبيحة . وليس الحسن والقبح إلاّ الابتعاد عن العربية نحواً وأبنية .

---

(٥١) الشعر والشعراء ٢ / ٥١٦ ، والبيان والتبيين ٣ / ٢٤٤ ، وديوان عدي بن الرقاع من منشورات المجمع العلمي العراقي . أقول : أبيات عديّ هذه التي تدل على مبلغ عنايته بشعره تذكّرنا بقول أبي تمام :

خذها ابنة الفكر المهذّب في الدجى والليل أسود رقعةِ الجلبابِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكأني أنظر الى « الضرورة » على أنها مما يريد أن يفرضه الشاعر الفذّ مستظهراً بشاعريته ، مستعصماً بها ، وليس ما يقوله النحويون واللغويون شيئاً إزاء ما يرسله هذا الصانع الاستاذ في فنه . ألا ترى ان« الضرورات » قد عرضت للفحولة من الشعراء ، فأما غيرهم من النظّامين فهم يكدّون ليبتعدوا عنها ليستحقوا رضا النحويين .

ولم يدرك أهل البلاغة أن للشعر لغة خاصة ، وذلك لأنهم أشاروا الى ما يقدح في الفصاحة ، ولم يستشهدوا على ذلك إلا بما جاء منها في الشعر . لقد قالوا في بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مُملَّكاً أبو أمّه حيٌّ أبوه يقاربُهْ

إنه من أقبح الضرورة ، وأهجن الألفاظ ، وأبعد المعاني ، ولو كان الكلام على وجهه لكان قبيحاً ، وكان يكون اذا وضع الكلام في موضعه : « وما مثله في الناس حتى يقاربه إلاّ مملّك أبو أمّ هذا المملك ، أبو هذا الممدوح ، فدلّ على أنه خاله[٥٢] .

جاء في « العقد الفريد » : « .... أُبيح للشاعر مالم يبح للمتكلم من قصر الممدود ، ومد المقصور ، وتحريك الساكن ، وتسكين المتحرك ، وصرف مالا ينصرف ، وحذف الكلمة مالم تلتبس بأخرى »[٥٣] .

وربما كان مفيداً لنا في معالجة ماأسميناه « ضرورة » على أنها شيء من قوة الشاعر ، ماورد من قول الخليل : « الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه أنّى شاءوا ، وجاز لهم فيه مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده »[٥٤] .

---

(٥٢) الكامل ١ / ١٨ ، الموشح ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٥٣) العقد الفريد ٤ / ١١ ـ ١٢ .

(٥٤) روضات الجنّات للخوانساري ص ٢٨٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقول : ولهذا ذهب الأعلم الشنتمري الى أن الشعر « يحتمل فيه وضع الشيء في غير موضعه دون إحراز فائدة ولا تحصيل معنى »[٥٥] ، كالذي جاء في بيت الفرزدق المتقدم . وقال سيبويه : « .... فإن قلت : كيف زيداً رأيت ، وهل زيدٌ يذهب ؟ قبح ولم يجز إلا في شعر »[٥٦] ، وجعل سيبويه من يقول : « إن تأتني آتيك » قبيحاً ، وجوّزه في الشعر[٥٧] ، أي أن مايجوز في الشعر لايجوز في سعة الكلام . وقال أبو الفتح عثمان بن جنّي : « والاضطرار يجعل الشاعر ينطق بما لم يرد به سماع » .[٥٨] .

أقول : وقول ابن جني : « ان الشاعر ينطق بما لم يرد به سماع » يدلنا على أن الشاعر صاحب لغة خاصة يتصرف في أمرها ، وينطق بالجديد الذي لم يطرق أسماع المعربين ، وهم راضون مطمئنون . ويتوسع ابن جنّي قليلاً فيقول : « والشعر موضع اضطرار ، وموقف اعتذار ، وكثيراً ما يحرَّف فيه الكلم عن أبنيته ، وتحال فيه المُثُل عن أوضاع صيغها لأجله »[٥٩] . ويقف المبرّد على قول جرير :

« لقد ولد الأخيطلَ أمُّ سوءٍ »

فيقول : « إنما جاز للضرورة في الشعر جوازاً حسناً ، ولو كان مثله في الكلام لكان عند النحويين جائزاً على بعد »[٦٠] .

---

(٥٥) تحصيل عين الذهب ١ / ٢٩ .

(٥٦) الكتاب ١ / ٥١ .

(٥٧) المصدر السابق ١ / ٦٨ ، وقال ايضاً (الكتاب ١ / ٢٧٧) في الكلام على بيت كثير : « لعزّةَ موحشاً طَلَلٌ » ، وهذا كلام أكثر ما يكون في الشعر وأقل ما يكون في الكلام .

(٥٨) الخصائص ١ / ٣٩٦ [قال ابن جني : واعلم ان الشاعر اذا اضطُر جاز له ان ينطق بما يبيحه القياس ، وإن لم يرد به سماع] .

(٥٩) الخصائص ٣ / ١٨٨ .

(٦٠) المقتضب ٢ / ١٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقول : وقول المبرد : « انما جاز للضرورة جوازاً حسناً » يومىء ان الجواز هنا من صنعة الشاعر المفلق ، وهي مدركة للحسن . وقد يتجاوز الشاعر هذا الذي يقرّ حسنه النحاة فيكون منه ما كان لجرير في قوله :

ولو ولَدتْ قفيرةُ جرو كلبٍ لسبَّ بذلكَ الجَروِ الكلابا

قال ابن شرف القيرواني : « ... فنَصَبَ « الكلاب » بغير ناصب ، وقد تحيَّلَ له بعض النحويين بكلام كالضريع الذي لايسمن ولا يغني من جوع »[٦١].

وقال في هذا ابن جنّي : « قيل هذا من أقبح الضرورة ، ومثله لا يعتدّ به أصلاً ، بل لا يثبت الا محتقراً شاذاً »[٦٢] .

أقول : وجرير يدرك أن الذي قاله يجانب المشهور من الصواب ، ولكنه يصرُّ عليه ، ولا يكترث لما يكون من أقوال النحويين . وهذا يعني أنه يملك الحق فيما يقول ، وأنه يفرض اللغة في سعتها وفي ضيقها ، وكنا قد رأينا نظائر ذلك في شعر الفرزدق ، وما كان له مع النحويين . ويدلنا على ما ذهبنا إليه من انّ « الضرورة » قد عَرَضت لكبار الشعراء جاهليين وإسلاميين . وكأني أعدّ من التزيّد ما جاء منه في شعر لبيد وطرفة وعنترة وامرىء القيس وأضرابهم . وهل يكون لي ان أنسب الى « الضرورة » واقدح في بيت للشاعر لبيد ، وهو قوله :

« دَرَسَ المَنا بمتالعٍ فأبانِ »[٦٣]

ويريد : المنازل .

---

(٦١) أعلام الكلام ص ٣٧ .

(٦٢) الخصائص ١ / ٣٩٧ ، وفي « شرح المفصل » لابن يعيش ٧ / ٧٥ ـ ٧٦ أقوال للنحويين في البيت واختلافهم فيه .

(٦٣) الخصائص ١ / ٨١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي رجز العجاج ، وهو الذي حفظ لنا الكثير من شوارد العربية ، في قوله :

« أوالفاً مكّةَ من وُرْق الحمي »[٦٤]

وليس لي أن أقول ان العجاج اضطره الوزن فغير « الحَمام » وجعله « الحَمي » مراعاة للوزن.

والذي أراه أن شيئاً من هذا عرفه العرب ، ولم يصل الينا . وأنا استظهر بقول أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[٦٥] . ويدلنا على ان الذي قيل ، وعُدَّ من الضرورة ، شيء عرفه العرب ماكان من قول أبي الاسود الدؤلي :

ليت شعري عن خليلي ما الذي غالَه في الحبِّ حتى وَدَعهْ[٦٦]

فقد خفّف أبو الاسود الدال في « وَدَعه » ، والكثير فيها أن الفعل مضاعف ، وظنّوه ضرورة ، وفاتهم أنّ من القرآء من قرأ « ما وَدَعك ربُّك وماقَلَى » .

ثم كيف لي أن أقولَ بالضرورة في قول الأعشى الكبير :

« وما قَصَدت من أهلها لسوائكا »

لقد جعل سيبويه قول الأعشى « سوائكا » ضرورة ، لخروجها عن الظرفية لأنها ظرف لديه وقد جعل من الضرورة أيضاً قول خطام المجاشعيّ :

« وصاليات ككما يُؤثفَيْنْ »

لاستعمال الكاف اسماً بمعنى « مِثل » فأدخل حرف الجر عليه . وقد أضاف

---

(٦٤) ديوان العجاج ص ٢٩٥ .

(٦٥) نزهة الالباء ص ٣٣ [طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ : ٢٥] .

(٦٦) الخصائص ١ / ٣٩٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سيبويه فقال : « فعلوا ذلك لأن معنى « سواء » معنى غير ، ومعنى الكاف معنى « مثل »[٦٧] . وكأن سيبويه التمس وجهاً في قول الشاعرين .

وهل لي أن أعد من الضرورة ما ورد في أرجوزة جرير وهو قوله .

إني امرؤ يَبني ليَ المجـــدَ البـــانْ أندبُ مجـداً غير مجـدِ ثُنْيـانْ[٦٨]

وأراد الباني . وكيف يكون ضرورة قول الأخطل :

جـزاء يـوسفَ إحســانٌ ومغفرةٌ أو مثلما جُـزْيَ هـارونٌ وداودُ[٦٩]

أقول : كيف لنا أن نعدّ ذلك ضرورة ، وقد ورد نظير قول جرير في لغة التنزيل ، قال تعالى : « فتولَّ عنهم يوم يَدْعُ الداعِ الى شيء نُكُر »[٧٠] . وأما قول الأخطل « جُزْيَ » باسكان الزاي فمن لغة العرب ، وتميم قرؤوا «بما رَحْبَت»[٧١] بإسكان الحاء، وهي لغتهم في الفعل الثلاثي، وبها قرأ زيد بن عليّ . ومثل هذا قراءة أبي السمال في « حَسْنَ »[٧٢] بإسكان السين وهي لغة تميم[٧٣] .

وهل لي ان أحمل على الضرورة بيتاً للمتنبي كان مطلعاً لقصيدة له من قصائده المحجّلة ، وهو :

بـــادِ هـواكَ صبرتَ أم لم تصبرا وبُكاكَ إن لم يجرِ دمعُـك أو جرى

أمر الفـؤادُ لسـانَـه وجُفُـونَـه فكتَمنَه وكفى بجسمكَ مُخبرا[٧٤]

---

(٦٧) الكتاب ١ / ٣٢ [١ / ١٣ ، ٢٠٣ ط بولاق] .

(٦٨) ديوان جرير ص ٢٩٠ .

(٦٩) شعر الأخطل ٢ / ٧٧٠ .

(٧٠) سورة القمر ، الآية ٦ .

(٧١) سورة التوبة ، الآية ٢٥ .

(٧٢) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

(٧٣) البحر المحيط ٣ / ٢٨٩ ، وانظر غاية النهاية لابن الجزري ٢ / ٢١ .

(٧٤) شرح ديوان المتنبي ٢ / ١٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس لي أن أقول ان الالف في « تصبرا » جاءت من نون توكيد ساكنة للوقف ، وهي كالألف في قوله تعالى « وليُسجَنَنْ وليكونا »[٧٥] ، لأن الفعل سبق بـ « لم » ، والتوكيد لايلحق المنفي . ومن هنا لابدّ لي أن أقول : ان بيت المتنبي على شاكلة الشاهد النحوي :

يحسَبُه الجاهلُ مالم يعلَما شيخاً على كرسيِّه مُعَمَّماً[٧٦]

أقول : كيف لي أن أحمل بيت المتنبي ، وهو مطلع جميل ، على الضرورة وأراني اذهب الى أبعد من هذا فلا أحمل قوله أيضاً على مخالفة القياس :

فلا يُبرم الأمرَ الذي هو حالِلٌ ولا يحلل الأمرَ الذي هو مبرِمُ

أقول هذا لأني أعرف ان المتنبي يعرف العربية ووجوهها ، ولهذا لا بد أن يكون فك الإدغام ضرباً من كلامهم أو كلام إحدى قبائلهم ، وأنا استظهر على هذا بفك الادغام في الألسن الدارجة . ان بعض هذه الألسن تلتزم بالإدغام في حين أن غيرها تفكّ الادغام ، فمنهم من يقول : « حالِل » و « شادِد » وآخرون يقولون في جهة أخرى : « حالّ » و « شادّ » .

إن المتنبي هو الذي يقول :

أنا الذي نظَرَ الأعمى الى أدبي وأسمَعَتْ كلماتي من به صَمَمُ
أنامُ ملءَ جُفوني عن شوارِدِها ويَسهَر الخلقُ جَرّاها ويختصمُ

أقول : الذي يذهب الى هذا الحد مزهواً ، وله الحق في ذلك ، لا يأبه لما يقوله أهل اللغة والنحو . وبعد فإني أختم هذا الموجز فأقول : لقد رأينا مكانة الشاعر القديم حين يرسل شعره فيفرض على السامعين صنعته متصرفاً ومجدّداً ، وذلك كله يتأتى مما يشعر به سطوة المفلق المهلم ، فهو ذو فنٍ وأصالة .

---

(٧٥) سورة يوسف ، الآية ٣٢ .

(٧٦) الكتاب لسيبويه ٣ / ٥١٦ [٢ / ١٥٢ ط بولاق] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net